مرايا لا تنكسر... ونقوش على رقعة المنسي (رؤية نقدية تعبيرية في روايات غريب عسقلاني المجموعة الكاملة)

د. زاهر محمد الجوهر حنني

هذه الورقة رؤية نقدية تعبيرية في المجموعة الكاملة لروايات الروائي الفلسطيني غريب عسقلاني وعددها اثنتا عشرة رواية مجموعة في أربعة مجلدات، صدرت مؤخرا. فبعد إعادة قراءة الروايات كاملة، كان لا بد من إلقاء ضوء خاص على هذه الروايات حين اجتمعت للمرة الأولى، وفي هذه الرؤية التعبيرية ما يؤسس لحركة داخلية في الروايات كلها، وعناصرها ويربط الزمان بالمكان بلغة الروائي التي استطاع فيها أن يوازن بين أجيال وعلاقات وأحداث مرتبطة بقضية وطنه التي أصبحت قضية إنسانية بالدرجة الأولى؛ فالكاتب لا يستجدي ولا ينافق ولا يهادن، بل يجدد موقفه المتمسك بثوابت تاريخية في ضمير الفلسطيني الذي يحب الحياة ولا يطلب الموت. وفي هذه الرؤية أيضا نقوش على رواية (المنسي) للكاتب الصادرة مؤخرا منفصلة قبل صدورها في المجموعة الكاملة، وفيها نص على النص، يحاول الولوج إلى أعماق الرواية واستنباط أبعادها الدلالية، واستنطاق ما فيها من جماليات خاصة، وإظهارها.

أما منهجية الورقة فكانت تعبيرية خالصة، ليس فيها تنظير نقدي، بل تعبير انطباعي، على المجموعة الكاملة لروايات الروائي الفلسطيني غريب عسقلاني. وخلصت إلى أهمية قراءة روايات الكاتب قراءات نقدية من جوانب متعددة، لعل هذه الورقة تكون بوصلة البداية.

قبل البداية..

مَرايا الروحِ أم مَرايا الوطن؟ للهِ درُّكَ يا غريبُ، وأنتَ تسكنُ في زوايا كلِّ بيتٍ وكلِّ حيٍّ، وتلاعبُ الألفاظَ وتداعبُها كي تساقطَ علينا رُطَباً جَنيّا، هُزّي إليكِ بجذعِ الروحِ يا بلدي، يأتيكِ مَنْ في قلبهِ ذاكَ الأَسى، اتَّئِدي. أبالحاوي نهزُّ عروشَ مملكةٍ؟ أمْ بالبنادقِ نجتازُ المدى الأبدي؟

مُجَدَّداً أُعيدُ قراءَةَ روايات غريب عسقلاني الكاملةَ، ومُجدداً أَعيشُ تفاصيلَها الفنيةَ والمضمونيةَ، ومجدداً أكتشفُ مزيداً من الرعبِ في ثناياها، والحكمةَ في تفاصيلِها، والروعةَ في بنائها الفنيِّ ومعمارِها الهندسيِّ، وأتجولُ في أزقتها، فتُضْحِكُني وتُبكيني، وتبقَى في شَراييني، كصرخةٍ ثائرٍ ما زالَ في العشرين، يبحثُ عن دروبِ العشقِ، كي يبدأَ مسيرَتَهُ ويقلبَ الطاولةَ على رؤوسِ الأشهادِ؛ ليقول: أنا أكتب إذاً أنا موجود.

الطوق:

لا تدري إن كانت البداية أم النهاية، زمنٌ يعبرُ في أزمان، ومكانٌ حاصرهُ الطغيان، لا دفء فيه ولا تحنان، من قالَ سنخضعُ أو نركع، سنجوعُ ونعرى، بمخيم مهزوزِ الأركان، قد ذقنا فيه الويلات، لكنْ بوصلةٌ تهدينا، سنعودُ نفجرُ ذا البركان.

على حافةِ الهمِّ اليوميِّ، يقفُ غريبُ في روايته الأُولى الطوق، المرآة الأولى التي عكستْ صورةً مألوفةً، بفنيةٍ غيرِ مألوفة، فيدخُلُ إلى أعماقِ النفسِ الإنسانيةِ، ويحللُها ويركبُها، ويطوّرُ أدواتها، بمبضعِ جراحٍ ماهرٍ، يتلمّسُ بشاعةَ الأشرارِ عندما يتلبَّسُهم شيطانُ الكراهيةِ، وتصيرُ حياةُ الإنسانِ رخيصةً في أعرافِهم، فيطردونَ ويقتلونَ ويدمرونَ ويعتقلونَ، ويدَّعونَ الخيرَ. ويحاكي حياةَ المعذبينَ في وطنِهم، ويصفُ أدقَّ التفاصيلِ في أوقاتهم، وينحازُ لإنسانيته، ويعبر عنها. ويأخذُنا لنقولَ مَعَهُ: "الناس اليوم يضعون النظريات" و"تتبرعم الجماهير خامات أصيلة"، لنعيشَ تلك الحياة، ونقفَ على صهوةِ الهمِّ اليوميِّ. حتى يدرك الجميع "أنه لا فرق بين رجل وامرأة"، حتى لو طالت يد الهمجية "أكل البغل" سيظل شعار المخيم: "ولا يهمك يا جعباص بكرة الخواجا ينداس".

زمن الانتباه:

ما أقسى قلبَكَ يا غريبُ! كيفَ استطاعتْ ذاكرتُكَ أن تخبئَ أعباءَ الهموم جميعِها وتصبَّها فينا مرةً واحدةً؟ أم تراها

مرآةً ثانيةً عكستْ بعضَ ملامحِ الزمنِ المُريبِ؟ وكيفَ تستطيعُ ترتيبَ الأماكنِ في القلب مثل ترتيب أيام الشهر؟ فمن المجدل إلى الشجاعية ومخيم الشاطئ، ومن عسقلان إلى أسدود، ومن شرق النهر إلى غربه. للمرة الأولى أرى الزمن يتقافز حيران بين كلماتك التي تربطه بحبل واحد، لم تتمكن من إفلاته. فمن سميرة التي " لم تقطع نهراً ولا عبرت بحراً، عبرت الليل جديلتها ملفوفة على سواعدهم" إلى غزة التي "تكبر عند بوابة السجن" و" تكبر مقبرة الشهداء عند باب غزة وتنمو وتخضر" ومحمود والأستاذ ناجي وعلي منصور، وحسني، وقائمة لها أول وليس لها آخر لتصير "الطلقة ظاهرة يومية" وتغوصُ بنا في متناقضات الزمن، فمن الرأسمالية إلى الاشتراكية ورأس المال والنضال اليومي والكفاح المسلح، وتوعية الناس. لتقول لنا: إن المشكلة في الاحتلال. وهل وجب "أن تهدئ زوجتك من أجل الذي في بطنها"؟ انتباه.

نجمة النواتي:

ليست العودةُ للوراء، وإنما هي روايةٌ جديدةٌ، كلُّ ما فيها فينا، هي نحنُ، لم أتمكنْ من الوصولِ إلى استنتاجِ لمعرفةِ سببٍ معينٍ لعددِ أجزائها، ما يقودُني إلى الاعتقادِ بأنَّ ذلك كان عشوائياً. وسببُ إصراري على معرفةِ دلالةِ العددِ، هو تحفزي لاختراقِ قلبِ الدلالاتِ التي حملتْها روايةُ نجمةِ النواتي؛ ففي كلِّ صورةٍ رأيتُ مشهداً موارباً أو موازياً، رأيتُ البحرَ بكلِّ تفاصيلِه، ولمْ أرَ فيه غدرَه، رأيتُ الصيادينَ وقصَصَهم وعشقَهم، يعيشونَ ويحلُمونَ، رأيت الرمالَ وهي تتحركُ جيئةً وذهاباً مع جدائلِ الشَّعر وحورياتِ البحرِ وكثافةِ الحضورِ وتقلبِ الصدورِ، رأيتُ الوطنَ يتحركُ على رمالٍ ساكنة، حتى أنتهُ عاصفةٌ هزتْ كيانَهُ، وطوحتْ أركانَهُ، لكنَّهُ ظلَّ موجوداً.

زمن دحموس الأغبر:

يبدو أنه آن الأوان لوضع أصول القوانين الدحموسية أسوة بقوانين العرض والطلب، وقوانين الجاذبية وقوانين الدقري وأبو السعود، في هذه الرواية التي تتابع أدق تفاصيل التحول في حياة الذين يستطيعون التحول ولديهم الاستعداد، وإذا مالت الريح مال حيث تميل. رواية لكاتب ملتزم وغير مؤطر، حر في فكره، يعيش، يحس، يفكر، ثم يكتب دون تردد أو تخوف ممن يرضى ومن لا يرضى. تكشف هذه الرواية عن حس متجدد، وقدرة تطورت بفعل إصرار الروائي على مواكبة الفنية العالية المطلوبة للوصول... ولكن إلى أين يا غريب؟

جفاف الحلق:

ها هي الذاكرة تتحول إلى مهاد موضوعي لعبق تاريخي، يحمل في طياته حلو الأيام ومرها، وللمرة الأولى يتحدث الراوي بصيغة (الأنا)، فيعفر زعفران الليالي الصاخبة، كدخان لفافة تبغ تفارق الحياة، ويعزف على أوتارٍ متهدجةٍ تتواءم مع ترانيم العوز والتهجير والتناقضات الهزيلة، راكبا مهرة حكمته وخبرة الأيام. ومن متمرس في حياة الصيد والصيادين في بحر غزة وعسقلان إلى خبير في أصول الغزل والنسيج والنول. وكأن الحياة انحصرت في روايتين متتاليتين في الصيد والحياكة وما بينهما.

ليالي الأشهر القمرية:

ما أقسى الكلمات حين تخدعك وأنت تحاول انتزاع حقق في التعبير عن فكرة ظلت حبيسة أنفاسك مدة قراءة رواية حركت فيك كل شيء، ثم تجد نفسك مدحورا، تراوح بين الذات والفكرة، وتتعثر وأنت تحاول، ثم لم تكد تجد مفاتيحها حتى تنطلق عائدا من حيث أتيت، في ليالي الأشهر القمرية، حين يكون البلد كله قائما على خوازيق وأبراج! وكأن الأشهر القمرية ترتبط ارتباطا أزليا بالعرب، وبأحوالهم التي تتغير تبعا لتغير أحوالها، فمن ليال حالكة شديدة الظلمة إلى ليال يصير فيها القمر بدرا، وتتدرج لياليهم كأيامهم من الوضوح إلى الطلاسم. كما تتدرج النياشين على أكتافهم. إلى أن يتداخل الليل في النهار في النكسة، ويتداخل النهار في الليل في الكرامة. وتظل الإسكندرية شاخصة على راية عروبية تحلم بغد أجمل، وتسلم الراية لبيروت التي ظلت محطة للوافدين. ولكن ما هي العودة إلى المخيم؟ أهي العودة إل الوطن؟ وإلى متى يظل الزمان والمكان مناوشات وقذائف وبارود وليلا يوزع الموت والأرق؟

عودة منصور اللداوي:

هو اللداوي حتما، فهل هو منصور، وهل عاد حقا كما ينبغي أن يعود العائدون!؟ وكيف وجد الوطن الذي رسمه في خياله، وأضاف إلى لوحاته ما استجد في خياله طوال سنوات الغربة؟ الشكوك والقلق تساوران الراوي، والربط المحكم الذي نسجه خياله المبدع بين ما كان وما

هو كائن، ما زالت تنقصه فرص العودة إلى وطن حر كريم، يعيش فيه كما ينبغي أن يعيش أي مواطن يتمتع بمواطنة كاملة، لا يوقفه جندي الاحتلال على عتبات التنقل والترحال. عندما تصل إلى مرحلة الشك بأن الروائي يتحدث عن نفسه، فهذا يعني أنه استطاع أن يجعل الواقع الحقيقي والخيال المبدع يتداخلان، ويتآلفان ليصبحا شيئا واحدا. حتى وهو يصف الطالبة التي استحدثت قلق قلبها، وتحاول ضبط التوازن بين قلبها وطموحها، أو وهو يصف عائدا من قلب الوجع القسري في غربة طويلة، أو وهو يصف مناضلا يتعرض للمطاردة والاعتقال نتيجة نشاطات طلابية أو فدائية.

على غير موعد تأتي الأمور في الوطن، وكأن الوطن هو الميعاد.

وها هو العائد يتفقد أروقة الذاكرة وخبايا التاريخ ويربطها كلها بما وجده بعد عودته، عمَّ يبحث، هل يبحث عن ماضيه، أم عن حاضره، أم عن مستقبله. وأخيرا... هل عاد؟؟؟

أزمنة بيضاء:

أجزم أنك لم تتمكن من إخفاء ملامحك في الروايات السابقة، ولكنك الآن تتخذ اسمك صريحا لتعجل بتقريب المسافة بينك وبين شخوص رواياتك، ولا أراك إلا قد مددت حبلا متينا بيننا وبينك مجددا، وما زلت تراوح بين عتبات الماضي وتترصد القادم من قريب أو بعيد. هل تبينتَ ملامحَ الزمنِ الآتي بعدَما قطعتَ الستينَ من عمركَ، لتعودَ إلى أزمنة بيضاءَ وتحنَّ إليها وتعايشَها منْ جديد؟ وما زلت مشاكسا، تعود ولا تعود...وما زالت الجميزة تنتظر، وللعشاق طقوسهم بالرغم من رحيل الشهوات. ومقامات شمس الغريب ما زالت في عسقلان.

ضفاف البوح:

منذ التقى الغريب بشمس صار شاعرا، وتحولت أنا من قراءة رواية عادية إلى قراءة رواية في قصيدة شعرية طويلة، وتتحول القصة إلى رحيل وغياب، وربما رجوع.. وطقوس الحضور والوجع والقهوة والتقويم والأثير، والتسامي رياضة فوق جلد الماء، وصولا إلى النوم في بياض الأثير. ترى هل كانت تلك رقصات تنفض غبار الزمن، أم خيالات كاتب يبحث عن روح الرواية؟

أولاد مزيونة:

حكايات تتوارد، الواحدة تلو الأخرى لتضعنا في نصاب صعب للمرة الأولى، رواية من نوع جديد، لم نألفه من قبل، ترى أما زال الناس في كل زمان يبحثون عن بطل يمجدونه، أو عن حكاية يتلمسون منها سراً من أسرار الحياة، لاستكناه ما بعدها؟ أم هو العجز والكسل يقود الناس إلى اختراع حكايات من نسج الخيال، ثم بعد تداولها يصدقها من اخترعها. وهل قصص البطولة والتضحية من تلك الحكايات؟ أم أنها مختلفة؟ هل يختلط الحابل بالنابل ونصير غير قادرين على التمييز بينهما؟ أم أنهما مثل عودة الجد وعودة الحفيد وشتان بينهما!

هل رأيت ظل موتي!:

زفرات حرى، وأهات تتبعها آهات، ظل رجل يطارد حقيقته، منذ أن وجد على هذه الأرض، وامرأة خرجت من بلاد الرافدين، يطاردها شبح الحقيقة، وكيف يلتقيان وكل منهما يعيش في منظومة الحصار، التي اخترعتها آلات قتل الروح، حتى باتت الأحلام قناديل مطفأة تطرز الفضاء بغيوم ملبدة بلهاث خصيان الانتصارات الرخيصة، فلسطين والعراق في خندق واحد، ربما! ولكنّ كلا منهما بات في خنادق متعددة، ويأبى حفار الخنادق تحقيق التواصل بينهما.

نقوش على رقعة (المنسي):

أيخلو زمن من وجود عشاق يعتلون صهوة الكلمة الحرة الطليقة من إسار قيود الزمن الرابض فوق أعنة القهر؟ سؤال طويل، لكنه أقصر بكثير من عذابات عاشق قادته ذبذبات الفطنة المتوهجة شوقا لرؤية هلال الشهقة المنسية في ظلال الوهم المتدفق من خيال الشاعر المنسي ابن زمن العسقلاني.

لعل البوح المرهف لا يفي الروائي حقه من الوصف عندما يصير الروائي شاعرا، عرفت غريب عسقلاني روائيا مرهفا كشاعر تخطته قواعد العروض (الخليلية) فأمسك بأعنة الشاعرية في (نجمة النواتي)، التي خلته فيها كاتبا يراوغ كي يصل، حتى قرأته في (عودة منصور اللداوي) كاتبا محترفا يعرف إلى أين يمضي، وبت متابعا له في (زمن دحموس الأغبر) التي لم أكن أعرف أنها وجدت طريقها إلى المطبعة، وكذلك أستغرب من صاحب دار نشر، حين قال لي: القراء ما عادوا يقبلون على قراءة الروايات في هذا الزمن. ربما توافقا مع زمن دحموس

الأغبر، لأنه أغبر، ولكن العسقلاني أعاد للرواية شيئا من رونقها الذي يجرك من حيث تشعر (أو لا تشعر) إلى القراءة في وقت العزوف عن قراءة الرواية في روايته (أولاد مزيونة -مزيزمة-) التي لم تكن قد نشرت آنذاك في حدود معرفتي، وكذلك في متواليته السردية (هل رأيت ظل موتي؟). ولعل رحلتي النقدية في عالمه الروائي هي التي قادتني إلى كتابة هذه الرؤية النقدية التعبيرية عن شاعرية الروائي غريب عسقلاني في روايته الجديدة (المنسي) الصادرة مؤخرا عن دار كل شيء في حيفا.

النص الإبداعي هو الذي يوحي عادة بالرؤية النقدية، والناقد يوجه دفتها حيث يشاء، وأمام المنسي يجد الناقد نفسه منقادا وراء نص شاعري يفيض رؤى تعبيرية، أبرزها فردية المبدع، ثم الصدق الفني، ثم الوحدة العضوية، ثم الخيال والانفعال، وما يتلو ذلك كله من امتياز النص التعبيري، وهذه هي المواجع التي تثير المتلقي فتجعله يجد تفردا في المنسي.

فردية خاصة:

المنسي ابن زمن القادم من عسقلان، ورضاب الخزامى وغيرها من الشخصيات التي أكد الكاتب أنها أسماء حقيقية وليست مستعارة لأسباب فنية، على العكس مما يقال في العادة، تؤكد تميز الكاتب بفردية خاصة، فهي في جانب تشير إلى تمرده العلني على المألوف، وفي جانب آخر تؤكد شاعريته المحلقة في عوالم تجتاز الحدود والمسافات وأعباءها؛ لتصل إلى المتلقي الذي لا يغادر مقعده في الصف الأمامي من مسرح الأحداث، إذ سوف يصير جزءا منها. فشخصية العسقلاني التي يجسدها في الحقيقة والحقيقة الفنية المنسي، ذات أبعاد فنية تعيش أزمة شاعرية، وتحاول الخروج من التموضع القسري على أرض الواقع، إلى الاختيار الحر الطليق. ورضاب الخزامى تشبهه ولا تشبهه؛ فهي تعيش حالة من التماهي والغيبوبة في عوالم المنسي، ولم يلتقيا.

لهذا كله نشأت علاقة محفوفة بالعشق، تربت على كتفيها يد القدر، وتزرع في فيافيها إطلالة عبق لاموسمي، تسقيها جنبات الوهم، وتغذيها نزعات الشاعر، فكيف لا تكون فردية خاصة؟!

الصدق الفني:

ظل الصدق الفني مفهوما غير محدد الملامح على الدوام، ولكنني بدأت أتبين ملامحه في خفيات المنسي؛ فكلما توغلت في نفسه ونفسها، شممت أريج الصدق وعبقه يفوحان كزنبقة ملامة، تتزيا عبير الوفاء المقيد بأربطة الزمن المتينة، فحين يعرب عن قلقه يعبر بصدق فني شاعرا تترنم الكلمات على أوتار مشاعره :"كل مشغول بفراغه يبحث عن امتلاء" ويظل الفراغ فراغا لا يمتلئ لأنهما:" قفزتْ من خاصرتي، وهبطتُ من خاصرتها ومشينا" وهو شاعر ماهر حين يصفها: " هيَ وحدةُ المتناغماتِ قسراً / والمتآلفاتِ شوقاً / والمتعارضاتِ قبلَ الوصول! / هيَ ظلُّ القلقِ عندما يستبدُّ الشوق..." وهو غير مراوغ البتة؛ إذ يقف أمام المعضلة الشائكة ويستنسخ منها صورة فنية معبرة عنها متجاوزة لها غير آبه بمن يرضى ومن لا يرضى؛ لأنه يعبر بصدق عن نفسه بألم مبهر، فيفتح الجروح، وينكأها أحيانا، ويعجز عن تجاوز واقعه الأليم المحاصر بين بوابتين، لا يستطيع تجاوز أي منهما: " هي تملكُ حدسا غريبا ومفاجئا، فقد وصفتني بدقة أذهلتني، واكتشفت في خارطتي ما هو أبعد من جلدي وعظمي، وهي تعرف أني المحاصر في غزة بين بوابتين، وخصومة فتح وحماس" والغريب أن الكاتب لا يفرغ كل ما في جعبته، أو ما في جعبته لا ينتهي، وكأنه يستمد مداده من ماء بحر غزة، وألوان مداده من رمال عسقلان.

الوحدة العضوية:

الرواية كلها مترابطة عضويا، وكأنها نص واحد متلاحق، فعلى الرغم من العناوين الكثيرة (عشرون عنوانا) التي ميزت الرواية حتى تبدو وكأنها قسمتها إلى أجزاء، إلا أن الترابط بينها يجعلها وشيجة واحدة، لا يفصل بينها سوى خطوط الدمع وبنيات القلب وشغاف العاشق والعاشقة، بل وكأنها عُقَدُ جمان شدت إليها حبيبات خرز العقيق، وحين تآلفت كلها جسدت عقدا واحدا متناسق الأجزاء مترابطها، فصارت كالعقد الفريد.

التعبير دلالة وعي قصدي، فمنذ البداية يصرح الكاتب بأنه راقص في باحة الصمت، وفيه تعريف على الشخصيتين الرئيستين، وهما المنسي ورضاب، وهما يعيشان في عالمين مختلفين؛ عالم يجمعهما، وعالم يفرقهما؛ فالذي يجمعهما عالم حالم قائم على ظلال خيال، تؤكد فيه رضاب أنها رأته في الحديقة وكادت تحضنه: " أخبرَتني، أنها بينما هي ونور في الحديقة، رأتني جالسا على كرسي تحت شجرة، وأنها فردت ذراعيها وانطلقت نحوي، وقبل أن تحضنني فوجئت بالرجل الجالس يقف، وقد تحول من الدهشة

إلى الحذر، وغادر المكان" هو عالم صنعه كلاهما بكل تفاصيله المشتهاة. وأما العالم الذي يفرقهما فهو واقع كل منهما؛ إذ يعيش في غزة وتعيش في مدينة سوسة التونسية، وبينهما مسافات شاسعة من الأزرقين، وحدود ليس تجاوزها بالأمر اليسير، بل يكاد يكون مستحيلا: " تتسمر في البرزخ، لا تدري كيف وأين الوصول إلى رجل ينتظرها ولا تراه، يقف حيث يعجز مدى البصر، عند التقاء أزرق الماء مع أزرق السماء!" والغريب في الأمر أنهما يعيشان حياة كاملة في عالمين فريدين، متباعدين، وحبكة الأمر تقتضي تصاعد وتيرة الأحداث حتى تصل إلى قمة من التعقيد، ليبدأ بعدها الحل ثم الوصول إلى النهاية المشتهاة أو المرجوة أو غير المتوقعة، إلا أن المنسي ورضاب يمثلان حبكة من نوع آخر تبدأ وتنتهي في وقت واحد، تشتد وتتأزم في لحظة، وتتوارى عن الخاطر في زمن لا يملكهما ولا يملكانه.

ما الذي تفعله يا غريب! وكيف تكون صريحا وغامضا إلى هذا الحد! لله درك! هل لي بغفوة عند أطراف بوحك، وصحوة عند أبعاد ظلك؟

ما الذي تريد أن تقوله؟ هل تريد أن تقول لنا قصة عاشق يتألق على سلم الفرح والحبور، لأنه أحب جنية الماء، وعاش في كنفها هائما متألما سعيدا وادعا، أم تريد أن تقول لنا قصة فارس فلسطيني أقعدته عن تحقيق أمانيه حدود صنعتها آلات الموت والدمار والواقع الوحشي، ويعيش مع امرأة في أطراف الوطن العربي الكبير هائمة في وجل من الحاضر والمستقبل وفوضى (كونداليزا رايس) الخلاقة! هل تقعد نادبا متأوها منتظرا أم تقلب الطاولة يا منسي؟ تلك هي الحبكة التي قرأتها في رواية ذات موضوع واحد فيه وحدة عضوية غريبة، لكنها من صميم فعل الغريب العسقلاني.

وتمتد الوحدة العضوية من أبعاد الظل الكبير للمنسي وبراعم خياله الخلاق، حتى حدود شغاف رضاب التي ما زالت منتظرة، كأم عربية تعيش التوجس مع كل دقة قلب ومع كل رفة عين. ولا ترى بارقةً، حتى لو كانت بارقة وهم. ويأتي مجددا حنين العاشق المتوهج بين علامتين؛ علامة الحضور في الزمان والمكان، وعلامة الوهم والخيال في اللازمان واللامكان، فأين يقع البسفور والدردنيل ومضيق جبل طارق، ومن أين تأتي الأسماك التي تموت ولا تموت؟ وفقوسها أتحيا أم تموت؟ وهل الأعراب ما زالوا أشد كفرا ونفاقا، أم ما زالت تتقاذفهم أمواج الوهم من جهة، وأمواج الحكمة من جهة ثانية؟ وهل كبش الفداء يضيع سدى؟

" بُهت الصيادون، سألوا:

- لماذا ماتت الأسماك! وصارت جيفاً!

- ذلك من وسائل غضب بنات الماء!

وأشار إلى الفتى المشبوح على الصليب:

- إنه المظلوم، أي ذنب اقترف؟

وقيل أن الصياد الحكيم دخلَ غيبوبة الرؤيا، وذرفَ دمعاً بَلل ما حفرته أصابعه من خطوطٍ ودروب، ونادى:

- اهبط يا منسي عن صليب الغدر."

ثم يلتقيان وهجا من خيال لا تفارقه الرغبة العارمة، ولا تعجل موته العلاقة الرخيصة:"أحب ما يحدث بيننا، أحب التقاء اثنين فوق ما تعارف عليه الناس من علاقات رخيصة." وتستمر مناجاة الروح الفلسطينية للروح التونسية عربية من المحيط إلى الخليج، روحا واحدة متحدة في السراء والضراء برغم بعد المسافات الجغرافية، والقضية المركزية واحدة هي السر المقدس وما أودعه الله فينا، ونوره الباقي منذ الأزل وإلى الأبد: "أنت متحولة يا رضاب، تقتربين وتبتعدين حول مركز ثابت هو وديع ونور، فهما الحقيقة الثابتة." وتتجلى روحهما معا في محمد الدرة والبوعزيز: "هل يعود محمد الدرة في تونس، وعلى أية صورة يكون؟

- الدرة لم يغبّ، كان في طور التحول من طفل إلى رجل، قتلوه طفلا في غزة، وقتلوه في تونس رجلا فاشتعل." ولكن النهاية المشتهاة لم تتحقق نبوؤتها بعد، ومحمد الدرة ما زال يقتل، والبوعزيز ما زال يحترق، لذا ما زال أمام المتلقي وقت ربما يطول وربما يقصر لتتحقق رؤيته التي قد تلتقي مع رؤية الروائي وقد لا تلتقيان، لكنهما ما زالا معا يبحثان عن نهاية (سعيدة). وقد "ينتهي التجلي بالحلول".

قد يتوهم البعض أن الحدث السياسي أقحم في الرواية إقحاما، وأن الكاتب أراد لفت الانتباه إليه، ولكنني أعتقد غير ذلك؛ فالدم واحد، وكلنا في الهم شرق.

الخيال والانفعال:

حين يدرك الروائي أنه أمام مهمة تقتضي أخذنا إلى عوالم خاصة، يرسمها بريشته ويوالف بين جنباتها، يصبح شاعرا، لأن الخيال في صوره يكون سيد الموقف، ومن الغريب أن العسقلاني لم يتركنا ولو للحظة نعيش في عالم نرسم ملامحه نحن، بل شكل هو كل ما يريد وأخذنا إلى الحالة التي يريدنا أن نقيم

فيها مدة الرواية كلها. فصنع عالما وهميا واقعيا خياليا توهميا معا، ووازن بينها جميعا، وهو الأمر النادر، وليس كل كاتب يستطيع صنعه بهذه المهارة.

أخضع العسقلاني خياله لانفعاله، وانفعاله لخياله، في موازنة غريبة، متناسقة، شاعرية، سالت عبراتها، ثم تدفقت نهرا جميلا متناغما، يسبح فيه العشاق، ويرتاده الوالهون والمعذبون في أرض الواقع القاحلة، مما يؤكد رؤية التعبيريين في النص الأدبي وهي أنه تعاقد حرّ كريم بين الكاتب والقارئ، أساسه المواجهة بين حريتيهما.

إن الصور الفنية التي رسمها الكاتب شكلت في مجملها رؤية تعبيرية غامضة واضحة غير معقدة، ولا متناقضة، فما لا نراه منها بأعيننا نحسه، وما لا نحسه نسمعه وما لا نسمعه ولا نحسه ولا نراه نستشعر عبيره، ومما نراه غزة وأحداثها، وسوسة وجمالياتها وخضرتها، والبحر وزرقته:" وتعلقنا مع الرجفة على سفودِ الوقت/ تطفو على مراجلها الدموع/ تسكنُ بينَ قلبِ العين/وعينِ القلب. ما الذي يحدثُ في غزة/ والذي يجري في تونس / وعندَ محطاتِ الانتظارِ في حواري القاهرة؟"

ومما نسمعه نبضات القلوب حقيقة ومجازا:

"- **هل تعلُمني الرقصَ، أم أنا من يعلمُكَ؟**

- **لم أمارس الرقص من قبل.**

- **أنت إمامُ الراقصين على نبض القلب!**"

ومما نحسه مشاعر عاشقين ذوبهما الحرمان:" اعذريني يا قاهرة المعز، قد عاهدتها أن لا نساء، ولا مدنَ تحتلني غير امرأة من صوت تشعل فيَّ بخور الصباح، يصبح الصوت ردائي الذي لا يستر عريي، وأصير رجلا من هذيان جميل!"

ومما نستشعر عبيره رائحة النعناع والقرنفل والخزامى: "- الريح أسبق إلا مع عطري، فهو يسبق الريح مع الضوء! أخبرَتْني أنها عثرت في الأسفارِ القديمة أن الخزامى، نبتة برية، تطيِّر عطرها عند شروق الشمس وتنام"

هذا تطواف حر في رواية كاتب حر، أخذني على صهوة كلمته المبدعة، وطوف بي في آفاق حريته النابضة، فأضحكني وأبكاني، وعرّفني وعلمني، فكتبت أتبع كلماته وأعبر عن رحلتي، وما زلت أشعر أن البداية قريبة وأنني اقتربت من هواجس روائي شاعر وكاتب مبدع، أتلمس ضوءا خافتا في عتمة الليل البهيم، وأربط بين هموم أمة ترامت أطراف حدودها، ووحدتها نبضات قلوب أبنائها، فعاشت أمة عربية واحدة من محيطها إلى خليجها، برغم هذه الحدود التي وضعها الاستعمار وقدستها الأنظمة الحاكمة، وكأن نبض القلب ونسغ الحياة وشلال الدم وهموم اليوم وهواجس الغد، متزامنة في عروق الإنسان أينما كان، وفي شرايين كل عربي. والذين لم توحدهم عذابات القهر والظلام وسطوة الغرباء، قد توحدهم مشاعر العشق النبيلة، فلا يظل المنسي ابن زمن العسقلاني منسيا، وتظل رضاب الخزامى متوحدة مع عاشقها العربي.

كانت هذه هي الرواية الأخيرة في هذه المجموعة من الأعمال الروائية التي أظنها ستكون المجموعة الأولى، آملا أن تتبعها مجموعة ثانية.

لستُ ممن يرتكبونَ خطيئةَ قتلِ المؤلف، وغريب عسقلاني حاضرٌ في رواياتِه، حضورَ المخيم وعرائسِ البحرِ، فقد جاء إلى الدنيا في السنة التي فجَّرَ فيها التاريخُ نفسَهُ، وأعلنَ موتَ الضميرِ البشريِّ الذي يتأملُ جرائمَ قتلِ الإنسانِ في فلسطينَ، ولا يحرك ساكناً، هل أحضرتَ مع ميلادِكَ تلك الكارثةَ يا غريب! ليس لك فيها ذنبٌ، ولا شك، هل لعبتَ في ظلال المجدلِ أمْ لمْ تَكُدْ تَرَها؟ حتى نزَّحوكَ قسراً عنها، وتجولتَ في بلادِ اللهِ حتى استقرَّ بك المقامُ في مخيم. ونهلت من المدارس والجامعة ما استطعت إليه سبيلا، حتى حصلت على إجازة الاقتصاد الزراعي، ولكن لماذا الاقتصاد الزراعي؟

لم ألتق بك حتى هذه اللحظة، وأتمنى لقاءك، ولكنني عرفتك في رواياتك، وقرأت فيك كاتبا روائيا مغامرا أحيانا، وفي أحيان أخرى متحفزا، وفي ثالثة متوترا، وفي رابعة ملتزما، ولم أقرأ فيك كاتبا متحذرا ولا منافقا. ربما لهذا كانت اللغة التي تستخدمها هي لغة الحياة اليومية الاعتيادية التي يفهمها الجميع، فهي بعيدة عن الملل والتحجر والتقعر، وفيها محفز على التواصل؛ فكل فقرة تتيح لما بعدها جوا مناسبا، ليس التسلسل الروائي التقليدي، ولكنه الغوص في الأعماق، واستكناه الأبعاد النفسية، وروابط الدوال الاجتماعية، التي تخلقت في رحم المأساة السياسية، فشكلت أجنة خرجت إلى الحياة، وعاشتها بطولها وعرضها، بحلوها ومرها، بمشيئتها وبالرغم منها. ولو أردت وضعها على محكات المدارس النقدية الحديثة، لوجدتها الأقرب إلى الواقعية، لكنها لم تلتزم خطا واقعيا بحرفيته ومدرسيته، وإنما التزمت بفنية عالية، مداراتها

القلق والانتماء والتعبير المتقن، لهذا أنت صانع ماهر في صناعته، يعرف كيف يعبر ويحترف، وليس همه من أين تؤكل الكتف!

لقد توقفت عن إصدارِ جديدٍ خمسةَ عشرَ عاماً، يا غريب، لماذا توقفتْ؟ أم هو العملُ في التعليم يصادرُ حقَّكَ في التعبيرِ الروائي؟ لا تُخْفِ الأمرَ، فقد جربتُه أنا، وأعرفُهُ جيداً! نهضتْ قامةُ الكتابةِ لديك، وتوثبتْ وصارتْ أكثرَ إشراقاً، وتطورتْ قدرتُكَ على جعلِنا نتوجسُ ونتابعُ ولا نكادُ نغادرُ حتى تأذنَ لنا بالمغادرةِ.

صور فتية أبدعتها مخيلة شاعر، وصاغتها قدرة روائي، بليغ في حبكته، فصيح في تقنياته، يمتلك توجيه دفة الرقة والعذوبة والخشونة والصلابة أينما تطلب الموقف، فيضحكنا ويبكينا في وقت واحد إذا شاء، على إيقاع الحياة بصولاتها وجولاتها، فَيُغَنِّي ونغنّي معه. ويرسم شخصياته الروائية من واقعه، وليس من عالم آخر، وعلى الإيقاع نفسه الذي تتطلبه الشخصية من حيث تأتي؛ فشخصية النازح وشخصية المتحول وشخصية الانتهازي وشخصية المناضل الوطني المقاوم المضحي، وشخصيات لا تستطيع تحديد ملامح واضحة لها؛ لأنها هي كذلك. كل ذلك في إطار زماني وإطار مكاني لا ينفصلان، فهما فلسطين في كل حالاتها. حين يصير الزمان جولة في المكان ويصير المكان حيزا في الزمان. أما حين يخرج الروائي من حدوده الضيقة إلى حدود أرحب فإنه يعيش حالة أمة بكل تجلياتها وحضورها الفني والواقعي، فيصير صادقا على عادته فنيا وواقعيا.

الحبكة لها قصة مختلفة في روايات غريب عسقلاني، قد تتراءى للوهلة الأولى أنها مغيبة أو مفككة، ولكنها في الواقع تحتاج إلى إمعان نظر، فهي تعكس شيئا من الواقع المفكك المتناقض المتداخل، وجوا من التأزم، يتلاءم مع أزمات الحاضر وخفاياه، في نهايات تكاد تكون مفتوحة، أسوة بالواقع الذي يأبى أن يتغير، حتى يغير الناس ما بأنفسهم.

ها هو غريب عسقلاني يعيد للرواية هيبتها، بعد أن هددتها وسائل الاتصالات الحديثة، لتصدق مقولة الزمن السريع، في القرية الكونية الصغيرة. بل يعيدنا إلى عالم غسان كنفاني وإميل حبيبي والطاهر وطار والطيب صالح وحنا مينه، بثوب عسقلاني جديد. استحق وعن جدارة أن يكون بين هذه الأسماء الكبيرة.